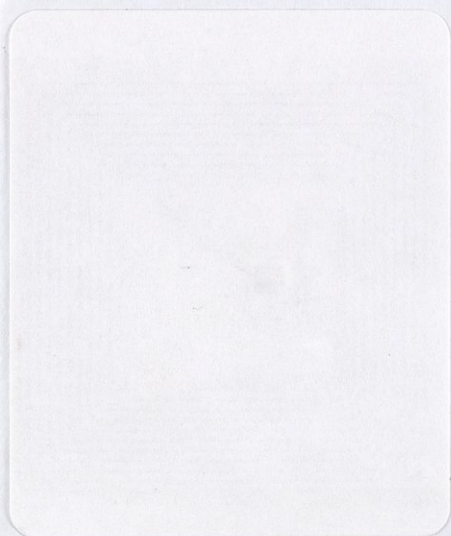
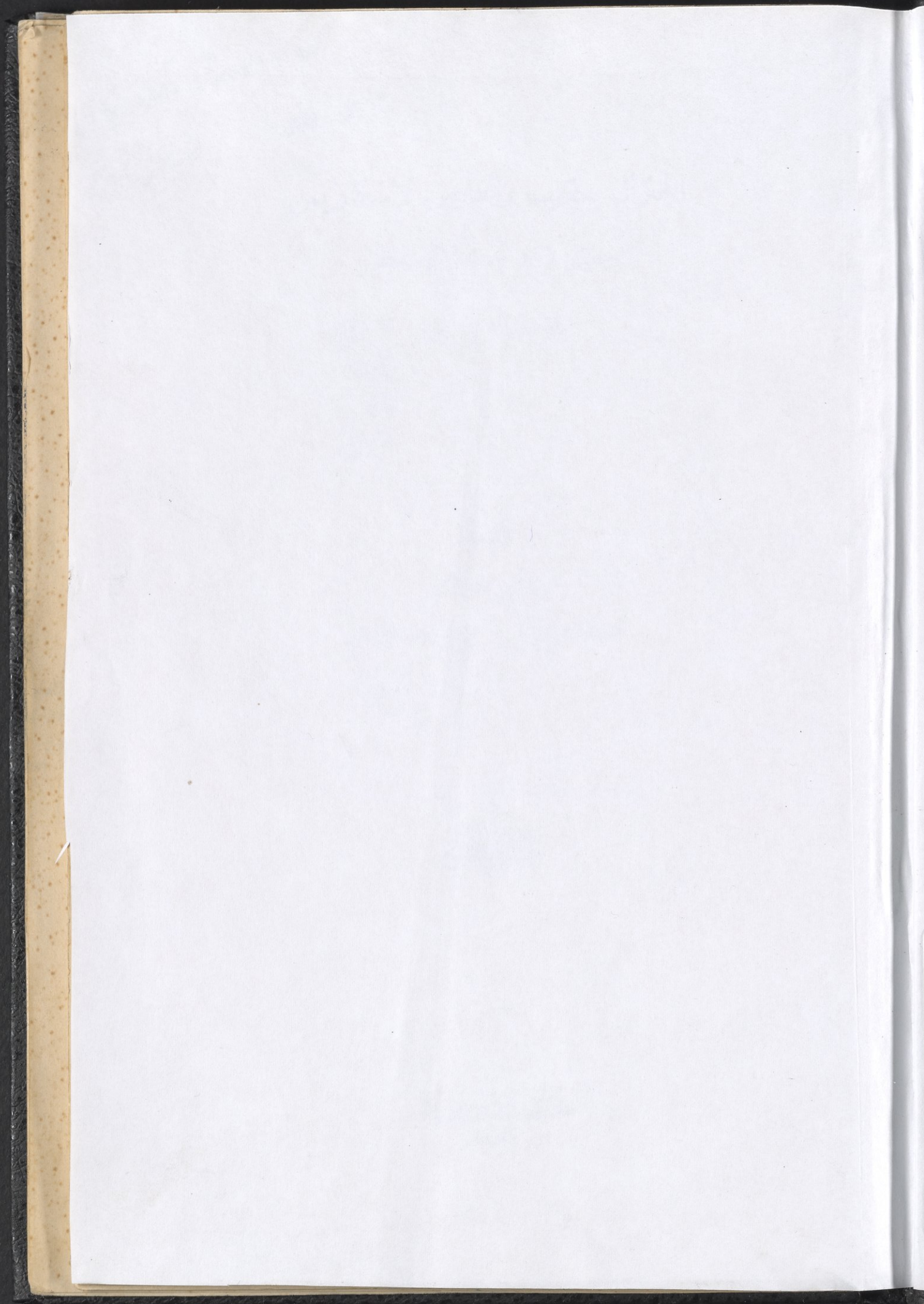




الجمال
يوسف بن القادر
الاسكندر
ومشروع استقلال
مصر في سنة ١٨٠٠
قريال





مع الأوقاف كمنزلة الأستاذ فلاح
١٩٣٢
يحيى

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر

في سنة ١٨٠١ DT

103

G47

1932

تأليف

سفيان غر بال

أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب



مطبعة المعارف شارع الفجاءة

١٩٣٢

962
Sh 13

97c, n
2. 98

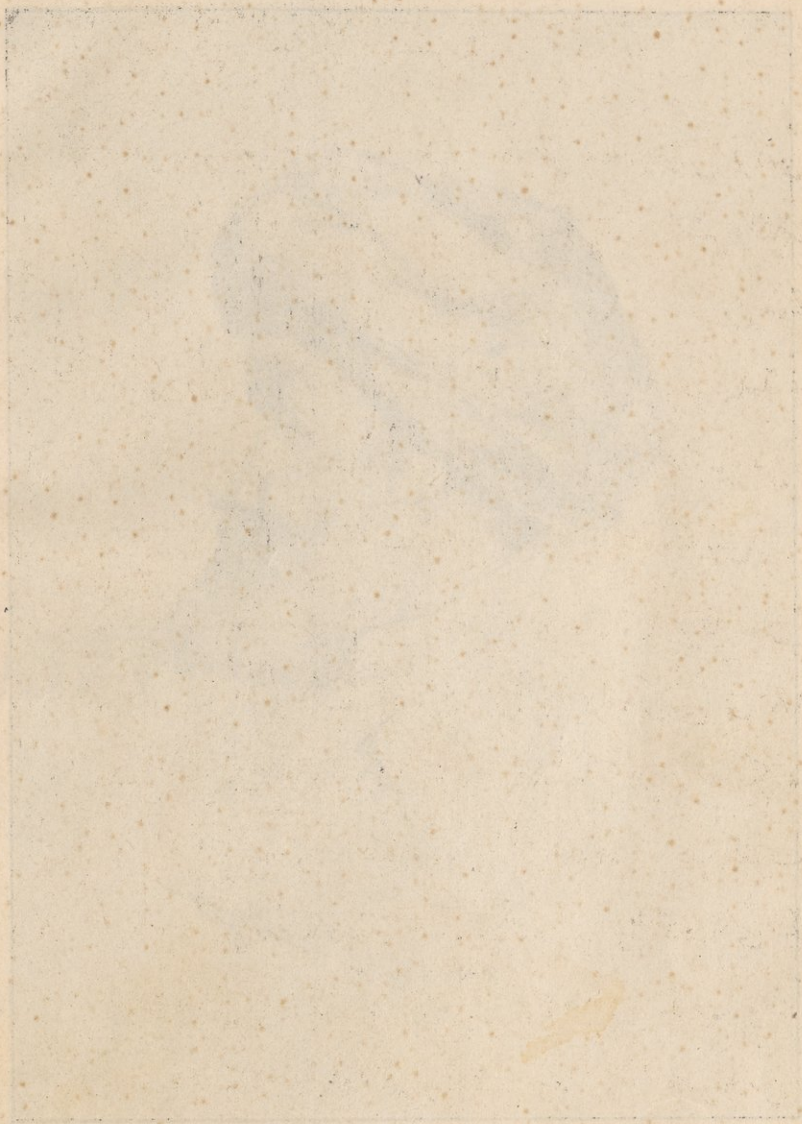
13564



الجنرال يعقوب حنا

(نقلا عن كتاب همصى الجنرال يعقوب صحيفة ١١٣)

وقد نقل همصى عن كتاب رحلة دينون في مصر . الجزء الثاني . اللوح الثاني من الألواح
المرقومة ١٠٨ وهذا اللوح يمثل يعقوب وعلى يمينه رسم راهبين قبطيين



الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١

في الأيام الأولى من شهر يولييه سنة ١٧٩٨ نزل بأرض مصر جيش فرنسي يقوده قدوم الفرنسيين نابليون بونابرت. ولم تكن هذه أول أغارة لهم عليها. ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر حاولوا امتلاكها، وتلاقت صفوة فرسانهم بممالك مصر في أكثر من موقعة. وكان الفرنسيون في تلك الأيام الغابرة — كما كان أهل الغرب عامة — أقل حضارة وإتقاناً لفن الحرب كما مارسته العصور الوسطى، وكان الفارس من الفرنجة صورة سقيمة من المملوك الشرقى، فكانت عاقبة تلك الاغارات الفشل

ومضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى كما عرفه سان لويس وبيبرس إلى الرجل الغربى الذى سيعرفه مراد والألفى والبرديسى في ١٧٩٨. خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعى وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض. خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسى والاقتصادى الجديدة. أما ممالك مصر فكانوا في ١٧٩٨ كما كانوا في ١٢٥٠ في الحرب والتفكير. أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلالهم ودولتهم وما كانوا يجربونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم. كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان أبائهم.

الاحتلال
الفرنسى

١٧٩٨ — ١٨٠١

اصطدم الممالك في صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذى عرفوه أيام الحروب الصليبية. وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه «من أنه إذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم»^(١) وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر

(١) الجبرتي: «عجائب الآثار» حوادث المحرم ١٢١٣ جزء ثالث ص ٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢

وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثلاثة أعوام . وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية . وضيق عليهم أثناءها حصار بحري انجليزي . وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك . وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية عدداً لا يستهان به . وظل مراد ومماليكه ومن انضم اليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهوراً عديدة ينازعونهم ملك الصعيد شبراً شبراً . وأخذت تبطل التجارة البحرية ويقل ورود قوافل دارفور وسنار وفزان وبرقة وغيرها من بلاد المغرب . ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا^(١) وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوربية من جديد ضد فرنسا وارغامها على التخلي عن فتوحها في إيطاليا وغيرها . وحتى مصر نفسها ، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد اعتزم ألا يتخلى عنها ، وأرسل نحوها من ناحيتي البحر والشام جموعاً من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها ، ولا بد ، لها مع الزمن أثر .

لا بد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسي . ولا بد إذن من الفصل بين أمرين مختلفين تماماً : الحكم الفرنسي كما كان والحكم الفرنسي كما يمكن أن يكون لو خلاص مما انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الزمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث .

ولا يمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلاص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها في عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادي الكبير أن تحكم قطراً زراعياً خصباً ذا مركز جغرافي فذ كوادى النيل

(١) يتجلى هذا الكره للإقامة في مصر في أكثر ما تركه رجال الحملة من مذكرات . ويبدو واضحاً أنهم الوضوح فيما كتبه بعض منهم لأهلهم في فرنسا في رسائل استولى عليها الانجليز ونشرتها الحكومة الانجليزية في سنتي ١٧٩٨، ١٧٩٩ في أجزاء ثلاثة تحتوى على الأصول وترجمتها الى الانجليزية ولم تهمل الحكومة التعليق اللازم عليها من قلم فرنسي من المهاجرين . وقد راجعت هذه الأجزاء على المخطوطات في دار السجلات في لندن ووجدتها صحيحة مطابقة للأصل .

راجع "Original Letters from the Army of Bonaparte intercepted by the British fleet". 3 parts. London 1798—1799.

وأمة عربية اسلامية ذات تاريخ مفعم بعبر الدهر كالأمة المصرية . لو خُص لهم حكم مصر لبذلوا جهداً صادقاً في تنمية الموارد بتنظيم الري وضبط النيل . وقد كتب بونابرت في مذكراته فصلاً رائعاً عن ضبط النيل بإنشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا^(١) . ولو دامت مدتهم في مصر لعمَلوا كل ما يستطيعون للاستفادة من مركز مصر الجغرافي ، ولوصلوا بين البحرين الأبيض والأحمر — وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير^(٢) . واستعمار مصر كان لا بد له أن يؤدي إلى اتساع النفوذ الفرنسي على ساحلي البحر الأحمر وإلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام . وأن يؤدي أيضاً للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخل والمخرج لتلك الأرجاء الأفريقية الواسعة وحل اللغز الجغرافي القديم . وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد علي . مما يدل على أن خطط الحكومات ليست مما يستنبط من بطون الكتب ولا مما تجوده القرائح إنما هي مما يمليه الواقع الجغرافي ويكرره التاريخ في أدواره المتباعدة .

ولو دام الاحتلال الفرنسي لسلك نحو المصريين مسلكاً يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم ثم يعتمد بعد هذا التحسين إلى أبطال النمو — أو إلى أبطاله في بعض النواحي وتوجيهه في الاتجاه الذي يريد . ولم يكن بد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأثير بحكم الانسانية المشتركة وبحكم منفعتهم : يقاوم الأوبئة بإنشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والحاجر الصحية حفظاً للقوى العاملة في الانتاج الزراعي الذي يغذي الخزانة العامة ويمون التجارة ، ومنعاً لانتقال المرض إلى الفرنسيين . يصلح الأداة الحكومية وينوع الإدارات صيانة للأمن وضبطاً للأموال العامة . ويستلزم هذا اصلاح نظام الجباية ونظام الضرائب . ويتبعه إلغاء الالتزام

1. Napoléon : " Notes écrites sur l'Egypte " ، تجد هذه المذكرات في " Voyage du Maréchal Duc de Raguse " ، Paris 1873 t.IV. pp.261—281. نظر أيضاً Bourienne : " Mémoires " ، Paris 1829, t. II. pp. 276—282. Mouriez : " Histoire de Méhemet Ali, t. III. pp. 84—86 note.
2. Description d'Egypte. Etat Moderne, t. I. vol. V. (٢)

واستقرار ملكية الفلاح للأرض^(١). يفتح الأبواب لرؤوس الأموال الفرنسية ولنظم التجارة والمعاملات الغربية. ويؤدي هذا لتنظيم القضاء على أساس غربي ولدخول القوانين الغربية. ويعني بأعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الإدارة من صغار الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسي لاعتمد بعض الاعتماد في الدفاع عن البلاد على جيش وطني من أبنائها^(٢).

ولو دام الاحتلال الفرنسي لاحتاط أشد الحيط في كل ماله علاقة بالتفكير الديني من المسائل الاجتماعية وموضوعات البحث العلمي. فالحاكم الغربي يجب أن تكون قواعد الانتاج الاقتصادي غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الانتاج والزيادة مما يهمله. ولكنه يكره من الحكوميين الشرقيين الانقلاب الاجتماعي والبحث العلمي الحر. وذلك لأسباب: منها حرصه على أن لا يظهر للعامة في مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لا بد وأن تؤدي في النهاية الى الرغبة في الاستقلال. ومنها الميل الى المحافظة على المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ باللطائف والتحف.

والتأمل في أحوال الأمم الإسلامية في الوقت الحاضر يتحقق صدق ما ذهبنا اليه. فانه يجد أن أشد هذه الأمم تطرفاً في الهدم والتغيير الأمة التركية العثمانية والأمة الفارسية وهما الأمتان اللتان تخلصتا تخلصاً تاماً من حكم الغرب السياسي. أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتلال الفرنسي لو أن أيامه دامت أن يبقى

1. Rigault: "Le Général Menou", pp. 254—9. (١) راجع مشروع الجنرال مينو في

Napoléon: "Campagnes d'Egypte" Vol. I ومذكرات نابليون في

p. 239 and Vol. II. p. 149. "Correspondance de Napoléon", t. XXIX pp. 493—496.

(٢) كتب نابليون في مذكراته:

2. "Il faut accoutumer insensiblement le pays à la levée d'une conscription pour recruter l'armée de terre et l'armée de mer."

ثم أخذ بعد هذا يصف عناصر هذه القوة الحربية ويشرح رأيه في ما يجب أن يكون عليه زى رجالها الخ

"Campagnes d'Egypte": Vol. II. pp. 151 sq. Voir aussi Correspondance de Napoléon, Vol. XXX pp. 85—86.

حكم القرى على ما عرفته مصر في عصر المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم وأن يعهد لفرنسيين في إدارة الأقاليم وأرئونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء الفرنسيون على الدواوين التي أنشأها فعلاً بونابرت من إساءة للشعور الاسلامي وبيّن كما توهم البعض بونابرت لم يكن ممن يعجبون فقال: «لا فائدة في اظهارنا الاحترام بل رمى بها الى انشاء وسائل تمكنه من الاتصوالروم والمسيحيين الغربيين بقدر في نفوسهم وتفهمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر ولا لسوء الفهم (١)» . ونجد في الماضي (١)

لم تكن ذلك
في موضوع رد
الشيخ الشافعي
يعقوب بن
نايبر

هذا بعض ما نتصوره عن تطور الحكم الفرنسي دث رمضان سنة ١٢١٣ إلى ترك لبس العمام البيضاء من أمرها . وليس هذا التصور مما يخلو من الفائدة التاريخية ذلك ونهبوا من الواقع . فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت (٢) وغيره من نواياهم شون على تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسي في غير مصر من الأقطار ولا لكن الزمن لم يتسع لتحقيق ما صورناه . ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على مصر - بونابرت وكليبر ومينو - أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم . ولم يكن ما قام به أولهم

(١) كتب نابليون في مذكراته :

1. "Nous avons besoin, pour les (les peuples) diriger, d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiraient eux-mêmes. J'ai préféré ces ulimas et les docteurs de la loi: 1e. parce qu'ils l'étaient naturellement; 2e. parce qu'ils sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles proviennent des idées religieuses; 3e. parce que les ulimas ont des mœurs douces ... sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays ... ne savent pas monter à cheval, n'ont pas l'habitude d'aucune manœuvre militaire, sont peu propres à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai intéressés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple, j'en ai composé les divans de justice ..."

Napoléon: "Campagnes d'Egypte". Vol. II. pp. 151 sq. voir aussi "Correspondance" vol. XXX, 83-4.

(٢) اقرأ أيضاً ما كتبه نابليون تحت عنوان «ما يكون من أمر مصر تحت الحكم الفرنسي»

في الفصل الثاني من مذكراته عن الحملة

"Correspondance de Napoléon. t. XXIX pp. 428-430".

واستقرار ملكية الفلاح للأرض^(١). يفتح اية الاداة الحقيقية لحكم البلاد ولم تتغير في التجارة والمعاملات الغربية. ويؤدي هذا لا العمال. بل ظلت كما كانت أيام الممالك القوانين الغربية. ويعني باعداد طائفة مرقضاها الفرنسيون في حكم مصر عهداً سعيداً الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسي لا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتادها على جيش وطني من أبنائها^(٢). بصفة خاصة أهل القاهرة. وكانت الانقلابات ولو دام الاحتلال الفرنسي لا كثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف من المسائل الاجتماعية وموضوعات من الضرائب والمغارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها قواعد الانتاج الاقتصادي غرب يأتي واحد منها بجديد ولا يصطدم بألوف لديهم: يهيمه. ولكنه يكره من المم خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه؛ ثم يتغلب عليه الحر. وذلك الحكم كما حكم على وهكذا دواليك.

المشجع. يكن للمصريين من نصيب في هذه الانقلابات إلا أعمال الادارة المالية من في الباط ورؤساء القبائل العربية والشيوخ من العلماء: فالفرق الأول بحكم اضطراب قداماء جميعاً لاستخدامه، يعمل المنتصرين كما عمل للمهزمين. ورؤساء العربان بسبب قوتهم الحربية قد يرجحون كفة طائفة من الأمراء على كفة خصومها. والشيوخ العلماء بحكم تصدرهم ونفوذهم في الناس وتحليلهم بصفات الفضل والاعتدال. يلجأ اليهم الناس للوساطة في رفع الحيف إذا ضاقوا به ذرعاً. وقد يحتكم اليهم المتخاصمون من الأمراء. وكان تدخل الشيوخ عادة لرفع الضيم واحلال الوئام محل الخصام أو للتخفيف من عنف الانقلابات

أما الحكم الفرنسي فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون. إذ لما زال حكم مراد وابراهيم حل محلها بونايرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكاً. ومهما قيل في قلة تدين الفرنسيين في تلك الأيام فهم غير مسلمين قد تصل بهم الضرورة الحربية أو ما ظنوه الضرورة الحربية الى انتهاك الحرمات الاسلامية.

كذلك ترك الوالي العثماني مصر عند الاغارة الفرنسية وزال بغيابه مظهر التبعية

للسلطان العثماني خليفة المسلمين وسمع المصر. لساميين من وطنيين وأجانب أنفسهم
سُمي لهم نظامها السياسي بأسماء شتى لا تدلهم ومنها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء
عليهم منشور « من طرف الفرنسية المبني على رر من اساءة للشعور الاسلامي و بين
لهم الحوادث بشهور غربية من سنين تبدأ » فقال: « لا فائدة في اظهارنا الاحترام
وكانت الفرنسيين طرقهم في مخالطة النساء والروم والمسيحيين الغربيين بقدر

لذكر ذلك
في موضوع
الامر مع الشيخ
السيد محمد
يعقوب
نايبر

الخاصة كرهاً شديداً. وأدى انتشار العسكر في أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر
أسرات الأمراء وانطلاق جوارهم عقب تركهم القنا في الماضي (١). ونجد في
ادث رمضان سنة ١٢١٣

من الفساد والرديلة
جاء في الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة
رابع وعشرينه كان وفاء النيل المبارك ووقع في تلك
من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف وسلك ولا
غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورزالة الرقاعة بدون
ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل انسان يفعل ما تشتهي نفسه
وما يخطر بباله وان لم يكن من أمثاله .

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً فشيمة أهل الدار كلهم الرقص (٢)
وجاء فيه أيضاً في ختام حوادث سنة ١٢١٥ : « ومنها تبرج النساء وخروج
غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض
منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نساءهم وهن حاسرات الوجوه
ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة
المكارية معهم وحرافيش العامة فالت إليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الأسافل
والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم [أي الفرنسيين] للنساء وبذل الأموال لهن

(١) الجبرتي . حوادث المحرم ١٢١٣ — جزء ثالث ص ٤
(٢) انظر مثلاً الجبرتي : حوادث المحرم ١٢١٥ — جزء ثالث ص ١٢٢
(٣) الجبرتي جزء ثالث ص ٨١ — ٨٢

واستقرار ملكية الفلاح للأرض^(١). يفتح شمة وخشية عار ومبالغة في اخفائه . فلما
التجارة وللمعاملات الغربية . ويؤدى هذا ليس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها
القوانين الغربية . ويعنى باعداد طائفة مرتبات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى
الموظفين . ولو دام الاحتلال الفرنسى لامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالمرّة
على جيش وطنى من أبنائها^(٢) . من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلد من
ولو دام الاحتلال الفرنسى لا كثير جماع الخيرات فى حوز الفرنسيين ومن والاهم
من المسائل الاجتماعية وموضوعهم لهم وموافقة مرادهم وعدم مخالفة هواهم ولو
قواعد الانتاج الاقتصادى غرب لمرح الحشمة . . . واستملن نظراءهن (لمخالطة
يهمه . ولكنه يكره من الحبيب الكثير منهم بنات الأعيان . . . فيظهر حالة العقد
الحز . وذلك الحكم كليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع حكام الأخطاط منهم
المشجع . . . سمات متزييات بزيمهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية . . .
فى الامنى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكها وامامها القواصة والخدم
قد وبأيديهم العصى يفرقون لهم الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام . .
ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من
تبرج النساء واختلاطن بالفرنسيين ومصاحبتهن فى المراكب والرقص والغناء
والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة
والخلى والجواهر وصحبتهن آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من المجون والهزل .
وخصوصا اذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون
ويتجاوزون بمحاكاة ألفاظ فرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم الشيء الكثير .
وأما الجوارى السود فانهن لما علمن برغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبوا اليهم أفواجا
فرادى وأزواجا فنظطن الحيطان وتسلقن اليهم الطيقان ودلوهم على مخبات أسيادهم
وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك^(١) »

(وفي أيام الاحتلال الفرنسي حرّر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء الاسلام . وقد عرف بونابرت ما في هذا التحرر من اساءة للشعور الاسلامي وبيّن في مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بياناً واضحاً فقال : « لا فائدة في اظهارنا الاحترام العميق للمدين الاسلامي اذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية . وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالاسلام وبالمسلمين مما كانوا في الماضي ^(١) » . ونجد في الجبرتي تأييداً لصديق هذه الرغبة . فيذكر في حوادث رمضان سنة ١٢١٣ « رجوع نصارى الشوام الى لبس العائم السود والزرق والى ترك لبس العائم البيض والشيلاّن الكشميري الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيّس لهم من ذلك ونهبوا (أى الفرنسيون) أيضاً بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عاداتهم مع المسلمين أولاً ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ^(٢) . . . »

لم تستمر الحالة على ذلك . ولم يكن استمرارها مما يمكن في ظل حكم غربي جمهوري شعاره المساواة والحرية الدينية . وما كانت الاعتبارات السياسية لتستطيع محو هذا الشعار تماماً . هذا الى حاجة الاحتلال الفرنسي لغير المسلمين : لأموالهم ودرائتهم بأحوال البلاد ونظمها وعادات أهلها ولا مكان الوثوق بهم بفضل اتفاق المنافع .

(فعاد غير المسلمين الى ما عبر عنه الجبرتي بقوله : (ومن الحوادث) ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيّس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستدلالهم المسلمين ^(٣) »

١. "Correspondance de Napoléon, t. XXX, p. 84. (١)

(٢) الجبرتي : جزء ثالث ص ٤٧

(٣) الجبرتي : في حوادث شعبان ١٢١٣ . جزء ثالث ص ٤٦

لم تذكر ذلك
في موضع رد
الشيخ الشيخ
عقوبه
نايبر

ولم يكن للحكم الفرنسي في مدته القصيرة ، وفي ظروف الحرب والفتن الملازمة له ، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الاغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعي . فقد كان حكماً عسكرياً شديداً عنيفاً . ولم يكن الإصلاح الذي فكر فيه الفرنسيون ، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها ، والبحث العلمي الذي شرعوا في اقامة قواعده مما يجتذب اليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل . ذلك لأن النظم الحكومية التي اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق في آخر القرن الثامن عشر كانت ترمي لأغراض ثلاثة أساسية : جمع الأموال المفروضة ، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة ، واستتباب الأمن . وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة في أحوال الرعية ؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات . وإذا شئنا اجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكي ، قلنا أنه يمتاز بقلّة التدخل الحكومي كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف . ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها في كل ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية . ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه . فان ارتباط الإدارة الذي نجم عن الانقلابات المتتابة ، وسوء ذمة العمال ، وفوضى السجلات ، وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفرض المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية .

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون في ١٧٩٨ بالتدخل الحكومي وبما يصحبه من النظم الدقيقة . ولا أن يعدوها - كما نعدّها الآن - ضماناً لحقوقهم . لأنهم على العكس كرهوا ضبط الدفاتر ، واعتبروه اشتطاطاً في الطلب ، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض ، كتخطيط المدن من جديد ، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق ، وكس الطرقات ، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبداداً لا يطاق وفضولاً لا يفهم .

كره المصريون الحكم الفرنسي وقاوموه . ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين .
وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتيت لهم فرصة . وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي
لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في
القرن التاسع عشر . والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم
إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس . ولا يمكن تسمية ما ألفوه
استقلالاً . إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية .

(وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية . كرهها كبار العلماء دون أن يجبو الحكم
الفرنسي وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم . فكان
موقفهم في أيام الاحتلال الفرنسي موقفهم في الانقلابات الماضية . إلا أن منهم
ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسي وإعادة الحالة التي سبقتها .
يذكر التاريخ مثلاً السيد عمر مكرم الذي ترك مصر عند الاحتلال الفرنسي واشترك
في ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثماني لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب
اتفاق العريش) . وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب في قيام العامة على خورشيد باشا
الوالى العثماني وتنصيب محمد على والياً على مصر . وجرى له أثناء هذه الحوادث
حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية في مقاومة الظلم^(١) . ولكن
لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان
سعيّاً لاستقلال مصر . والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة
الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسى . وقد رأى عاقبة أطاعه لما حاول أن
يتحكم في محمد على كما تحكم في خورشيد من قبل . فذاق النفي عن القاهرة وانتهاء
حياته السياسية^(٢) .

وكان السيد أحمد المحرقى ممن ظهر أيضاً في فتنة القاهرة الثانية . ولكنه لم يتصف
بصفات الزعامة التي ظهرت في السيد عمر مكرم مثلاً . بل كان رجلاً من رجال المال

(١) الجبرقى : في حوادث صفر ١٢٢٠ جزء ثالث ص ٣٥٢

(٢) الجبرقى : في حوادث جمادى الأولى والثانية سنة ١٢٢٤ جزء رابع ص ١٠٢-١٠٥

من نمط فوكيه ومن يمثله في أيام الملكية الفرنسية . وأصدق وصف له قول البرديسي له « مثلك من يخدم الملوك »^(١)

وظهر في هذه الفتنة أيضاً السيد السادات . وكان من أكثر العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه ، ومن أشدهم سعياً لإعادة الحكم العثماني . ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثماني بعد هزيمته في واقعة المرج أو هليوبوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحسوهم . فكتب لعثمان كتحدا الدولة كتاباً جاء فيه ؛ « ألزمت الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ فى النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى أختم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فرتم فرار الفيران من السنور »^(٢)

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسى أنهم كانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفرنسى من أجل العثمانيين . وأنهم كانوا فى فتنهم ضحية « الدجاجة » كما سماهم الجبرتي الذى اختص منهم رجلاً مغرباً لا ناقة له فيها ولا جمل . يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال ، يهدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج^(٣) .

✱
✱ ✱

وإذن فلا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمائها وأهل رأى فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطنى . ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسى لا فترة نحس يُرجى زوالها وعود ما سبقها . بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة

الجنرال يعقوب

(١) ترجمة المحروق فى الجبرتي جزء ثالث ص ٣٤٢ — ٣٤٦

(٢) الجبرتي : حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٨

(٣) الجبرتي : حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٤ — ١٠٥

الماليك . ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا^(١) : موضوع هذه الرسالة
 (لا أحب أن أغلو فأزعم أن يعقوب فهم تماماً كل الاحتمالات التى انطوى عليها
 هدم النظم القائمة فى مصر وحكم أمة غريبة لها . أو أنه تحول فى هذه الأشهر القليلة
 التى قضاها مخالطاً للفرنسيين من جاب من جباة الأموال نشأ ودرج فى بيت من
 بيوت الأمراء الماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى داعٍ من دعاة
 الحركات الوطنية التى يعرفها الغرب فى القرن التاسع عشر . (بل أجد يعقوب يحتفظ
 حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفات الجباة وعمال الادارة المالية من أبناء طائفته
 فى ذلك الوقت^(٢) . ولكنه رغم ذلك تأثر تأثراً يبنياً باتصاله بالفرنسيين وبالغرب
 وكوّن رأياً خاصاً عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدى اليه ولا يشاركه فى هذا الرأى
 الزعماء من أبناء طائفته (وقد خدموا الاحتلال الفرنسى كما خدموا الانقلابات

(١) هناك ترجمة ليعقوب فى كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزى تادرس (جزء ثالث ص
 ١٠ — ١٦) وفيها أغلاط . أهمها ما جاء عن موته ومحل دفنه . وليس فى هذه الترجمة تقدير
 حقيقى لسياسة يعقوب وأرائه وموقفه عند الجلاء الفرنسى — وهناك أيضاً ترجمة أخرى فى
 كتاب تاريخ الأمة القبطية تأليف يعقوب بك نخلة رفيله (ص ص ٢٨٩ — ٢٩١) وهذه
 الترجمة أهم من السابقة اذ سجل فيها المؤلف ما سمعه عن يعقوب من المعمرين من الأقباط .
 وأخيراً نشر فى سنة ١٩٢١ المسيو Gaston Homsy وهو فرنسى يتصل نسبه بيعقوب مؤلفاً باللغة
 الفرنسية اسمه " Le général Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte " وهذا الكتاب رغم عيوب خطيرة فى ترتيبه واستنتاجاته لا يخلو من فوائد . اذ جمع فيه
 المؤلف الكثير مما جاء عن يعقوب فى مؤلفات أهل الحملة ونقل عن السجلات الرسمية فى مرسيليا
 وثائق مختلفة خاصة بأسرة الجنرال . ومن النقط الهامة التى حققها المسيو همصى تاريخ موت يعقوب
 وموضع قبره فى مرسيليا والسيوف الذى قلده اياه الجنرال Desaix . وعن كتاب المسيو Homsy
 نقل أعضاء لجنة التاريخ القبطى فى « تاريخ الأمة القبطية » (ص ١٦٩ — ١٧١) ما كتبوه
 عن يعقوب ولا حاجة بنا للقول أن المسيو همصى لا يعرف شيئاً عن الوثائق السياسية الخاصة
 بمشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١

أما عن اسم يعقوب فقد اكتفى مؤلفو الحملة الفرنسية المعاصرون بذكر اسمه الأول فقط ولكنه
 يرد يعقوب حنا " Jacob Anna " فى الوثائق التى استخرجها همصى من سجلات مرسيليا —
 راجع شهادة وفاة فى همصى ص ١٤٠ — ١٤١

(٢) تجد اشارات « لمناورات مالية » من جانب يعقوب فى خطاب من لاسكاريس للجنرال
 مينو نشره مسيو أوريان فى رسالته عن لاسكاريس فى مجلة " Mercure de France " بتاريخ
 ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٨٧

السابقة) ولا أهل الرأي من مواطنيه المسلمين (وقد شرحنا موقفهم من الحكم الفرنسي) (يرد ذكر يعقوب في تاريخ الجبرتي في أكثر من موضع . ويرد ذكره في كل هذه المواضع مقروناً بأعمال تمنع القارىء من أن يظن به خيراً وتمثله في صورة المتفاني في خدمة الاحتلال الفرنسي).

يذكر الجبرتي عنه تأييده الحكم الفرنسي أثناء ثورة القاهرة الثانية بينا الرؤساء الأقباط الآخرون بما فيهم أكبرهم جميعاً جرجس جوهرى يدارون الثوار ويمدوونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفاً على حركتهم^(١). «أما يعقوب — كما سجل الجبرتي في حوادث شوال سنة ١٢١٤ — فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه»^(٢).

ويرد ذكره أيضاً في وصف ما حاق بأهل القاهرة من الشدة في جمع الغرامة المالية التى ضربها عليهم كبير بعد اخماده الفتنة فيقول الجبرتي في حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤: «وكل كبير يعقوب يفعل في المسلمين ما يشاء»^(٣).

زاد نفوذ يعقوب في الأيام التالية لفشل الثورة في القاهرة . وزاد في تلك الأيام التالية لفشل الثورة والسابقة لقتل كبير . زهو الأقباط وخيلاؤهم — أو على الأقل زهو من كان يعمل للحكومة الفرنسية منهم . وترى امتعاض المسلمين ظاهراً في الجبرتي في أكثر من موضع: «منعوا المسلمين من ركوب البغال سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم ، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم وفى كل وقت»^(٤). «وأيضاً، «وتطاوت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم

(١) الجبرتي جزء ثالث ص ١٠١ (٢) الجبرتي جزء ثالث ص ١٠١

(٣) الجبرتي جزء ثالث ص ١١٣

(٤) الجبرتي في حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤

ولم يبقوا للصالح مكاناً وصرحوا باتقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين^(١) . « . وبيّن الجبرتي أن تعسف الفرنسيين في الطلب كان بارشاد القبطة . . . « لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الأقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو في أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز (أى المماليك) البطالة وغيرهم ، والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحجاب وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسم والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة ويرسل إلى ولايات الاقليم من جهة المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسية والطوائف والجاو يشية ، والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فاذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب وخصوصاً إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم وإلاّ قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم وسحبوهم معهم في الجبال وأذاقوهم أنواع النكال ، وخاف من بقى فصائعهم وأتباعهم بالبراطيل بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم ، وأجهدوا أنفسهم في التشفي من بعضهم وما يوحيه الحقد والتحاسد الكامن في قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه . وما كنا بمهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون^(٢) . » .

(ويصف الجبرتي اهتمام يعقوب بتحسين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية) في الأيام الأخيرة من العهد الفرنسي . فيقول في حوادث الحرم سنة ١٢١٦ : « في عشرينه توكل رجل قبطي يدعى عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة الناس

(١) الجبرتي في حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤

(٢) الجبرتي في حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٨ — ١١٩

للعمل في المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم ، وسب وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه ، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قائمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة . ثم فردوا « كذا » على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة ، وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة^(١) » .

(ولم يكتف يعقوب بكل هذا . بل نظم جيشاً من الأقباط يخدم في صفوف الفرنسيين . وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة^(٢) فقد كان يعقوب صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عند ما جمع للفرنسيين . وقلده كليبر قيادة هذا الجيش ملقباً إياه بلقب أغا^(٣) . وفي عهد قيادة مينو رقى يعقوب جنرالاً ومنح براءة هذا اللقب^(٤) . وقد وصف الجبرتي هذا الجيش الوطنى - نلاحظ أنه أول جيش كوّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة - في كلامه عن حوادث الحرم سنة ١٢١٥ : — « وفيه طلبوا عسكرياً من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضرهم الى مصر وأضافوهم الى العسكر »^(٥) . ثم قال فى كلام عام عن السنة كلها : « ومن حوادث هذه السنة أن يعقوب لما تظاهر مع فرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبط جمع شبان القبط وحلق لحامهم (وان احتفظ هو بلحيته) وزياهم بزي مشابه لعسكر فرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف اليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيرهم عسكريه وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصرارى التى هو ساكن فيها

(١) الجبرتي جزء ثالث ص ١٨٨

2. Homsy: Le général Jacob, p. 101.

3. Homsy: Op. cit., p. 102.

4. Homsy: Op. cit., p. 120.

(٥) الجبرتي جزء ثالث ص ١٢١

خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنسيون ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر للملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيين»^(١).

يرد ذكر يعقوب في كل هذه المواضع فلا يمكن لقارئ الجبرتي أن يتصوره إلا كأحد أولئك المارقين الذين يظهرون في عصور الحكم الأجنبي ويكونون خلالها حرباً على أمهم. ولكن القارئ لا يجد في الجبرتي ولا في غيره أن يعقوب في سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسي هاجر وتبع الجيش الفرنسي إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثر على الأوراق الخاصة بهذا في سجلات وزارتي الخارجية الانجليزية والفرنسية بعد أن كدت أطرح الأمل في العثور على تفكير مصرى أو غير مصرى في حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر^(٢). وقد أشرت إلى هذه الأوراق

(١) الجبرتي جزء ثالث ص ١٧١ — قال يعقوب بك نخله رفيه في تاريخ الأمة القبطية (ص ٢٨٩) أنه شاهد «أنار هذه القلعة قبل هدمها في أيام المرحوم الحديوى اسماعيل».

(٢) هذه الوثائق أربعة. الأولى كتاب بالانجليزية من القبطان آدموندس للورد الأول للبحرية الانجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقه في ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب في الطريق إلى فرنسا — الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور من قلم الفارس لاسكاريس. والوثيقتان في أوراق وزارة الخارجية الانجليزية في المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتى

F. O. 78. Turkey 33 (September—December 1801)

والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نصر افندى للفصل الأول بتاريخ أول فنديمير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) و ١٨ صفر ١٢١٦ (وصحة هذا ١٥ جمادى الأولى) والرابعة بنفس التوقيع والتاريخ لتاليران وزير الخارجية والوثيقتان الثالثة والرابعة في سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية في أوراق وزارة الخارجية الفرنسية في المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما الميسو أوربان في مقالة عن لاسكاريس في مجلة Mercure de France بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ — ٥٩٥ — وقد حرف الميسو أوربان اسم الموقع إلى «Hemir» [راجع تحقيق هذه النقطة في الملحق الثالث لهذه الرسالة] وترجمة الوثائق الأربع تجدها في آخر هذه الرسالة

فيما نشرت في تاريخ هذا العهد من تاريخنا^(١) . ونشر المسيو دُون ترجمة وثيقة ونص أخرى من هذه الوثائق في كتاب ضمن المجموعة التاريخية التي تنشرها الجمعية الجغرافية الملكية بفضل حضرة صاحب الجلالة الملك . وقد مهد المسيو دون للوثيقتين بمقدمة تحليلية لهما^(٢) . وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق في تكوين رأى آخر في يعقوب وفي طبيعة علاقاته بالفرنسيين .

(خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين : خدمات من نوع ما كان يقوم به الفرنسيين جرجس جوهرى وملطى وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم . وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعصيد المؤقت للحكم الغربى .)

(ومن حق النظر في أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوائف الغير الإسلامية منها نظرت في أول الأمر للتدخل الغربى في شئونها بالعين التي نظر بها اليه يعقوب في آخر القرن الثامن عشر . أول ما في تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وإنما هو مزيج من مساوى الفوضى والعنف والاسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت . وثانى ما في تأييده للاحتلال الفرنسى أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه . ولا يقل عن هذا شأنًا - في نظره - ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية في ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية . ونحن نسلم

1. S. Ghorbal : " The Beginnings of the Egyptian Question ", p. 210. (١)

2. G. Douin : " L'Egypte Independante ". Le Caire, 1924. (٢)

بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال . وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشاءها وتسليحها وتدريبها . غير أنه يلزمنا أن نذكر أيضاً أن الدلائل كلها كانت تدل على أن هذا الاحتلال لن يدوم ، وأن القائد كليبر نفسه الذى أذن بانشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر وأنه لهذا حاول — كما نعلم — الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠ ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى تقضيه^(١) . وسنبين فى موضع آخر^(٢) من هذه الرسالة أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها .

كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً . على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين ، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس : الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى ، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم ، وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبج جماعه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المشتمل . فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثلهم .

(١) عن اتفاق العريش راجع .

1. Ghorbal „ The Beginnings of the Egyptian Question ” Chap. VIII.

(٢) صحيفة ٣١

وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد . هذا الفرق بين الأداة التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر ، ليس في الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق . إذ ما حاجة هذا السيد تقيب الاشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يميل إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد ؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء . أما يعقوب فله شأن آخر . إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين : ذكر الجبرتي في حوادث الحرم سنة ١٢١٨ في كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالي العثماني خسرو — ذلك الاشتباك الذي انتهى آخر الأمر بولاية محمد على ، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة : « نحن مع بعضنا وأتم رعية فلا علاقة لكم بنا ^(١) » . أتم رعية . تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل ما لكم !

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك . وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية . فكان سباقاً إلى تفهم الدرس الذي ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية . فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان .



كيف كان للاتصال بالفرنسيين هذا الأثر كله في نفس فرد واحد من أفراد الأمة في آخر القرن الثامن عشر ؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية . وقد ثبت من القليل الذي وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨

أن يعقوب لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طائفته في ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم ، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك نخله رفيhle المولود في غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفى في ابريل ١٩٠٥^(١).

قال صاحب هذا التاريخ : « يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة في الدواوين مثل باقي عظماء أبناء أمته ، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة^(٢) » وأنه سار في مسلكه أراء الحكم الفرنسي « في خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال ببذل المال والعطايا فانه فضلاً عن مخالفته لهم في الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية^(٣) على أن رجال الدين ولا سيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله » وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريك « نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وأن يعيش كسائر اخوانه فلم يقبل وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجابهه جواباً عنيفاً فسخط عليه . وسمع أيضاً ما كان من تجرىء يعقوب على الدخول في الكنيسة مرة ركباً جواده ورافعاً سلاحه وطلبه أن يناول السر المقدس وهو على ظهر جواده معتذراً عن هذه الجسارة بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام في أهبة واستعداد^(٤) » .

(١) ترجمة رفيhle في كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزي تادرس جزء ثالث ص ص ٢٤ — ٢٥

(٢) الثابت غير هذا . وهو أنه عمل في تدبير التناام سليمان بك الأغا في الوجه القبلي راجع

Homsy : Le général Jacob, p. 17.

(٣) تزوج يعقوب مرتين . كانت زوجته الأولى قريبة له اسمها مختاره الطويل وبعد موتها

تزوج من مريم بنت نعمة الله وأصله من حلب وكان هذا في سنة ١٧٨٢ — والظاهر أن هذا الزواج لم تتم اجراءاته الدينية الا في سنة ١٧٩١ على يد البطريك — وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له في ١٧٩٣ — والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزواجها فحصلت في سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجلى العقود بمرسلياً به . راجع

Homsy : Le général Jacob, pp. 30—32.

(٤) تاريخ الأمة القبطية ص ص ٢٨٩ — ٢٩١

رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض
ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب . وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه
لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك واشترك أيام ابن كان يدبر التزام
سليمان بك الأغا في الصعيد في بعض حروب المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن
الذي نزل بمصر في ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثماني . واهتم بدراسة بعض تلك الحروب
وأقن أساليب المماليك في ركوب الخيل واستعمال السيف^(١) .

(ثم جاء الفرنسيون وعُين لمرافقة الجنرال ديسيه في فتح الصعيد وهنا أيضاً رفض
يعقوب أن يقصر همه على ما عُيِّن له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل راقب
سير الحرب ، وحارب مرة من المرات تحت عين ديسيه نفسه على رأس طائفة من
الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاءً حسناً حمل قائده على تقليده سيفاً^(٢)
ولم يك المعلمون الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال .

وتعلق يعقوب بديسيه - السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد - تعلقاً خالصاً^(٣)
وكان لهذا الاتصال أثر كبير في تكوين يعقوب جديد . قال بليار - وكان من ضباط
ديسيه في حملة الصعيد - يصف فترة من الفترات التي انتهزها القائد لراحة عسكره :
« أقمنا في سيوط وكنا نجتمع كل مساء في منزل ديسيه ، وكانت أحاديثنا تدور
حول موضوعات شتى . وكان كل منا يدلي برأى أو آراء في السلم والحرب وفي
النظم والتواريخ »^(٤) .

1. Denon : " Voyage dans la basse et la haute Egypte pendant les
Campagnes du général Bonaparte," an X (1802). Tome I Texte.
Explication des Planches, p. XXXIV.

2. Homsy : " Jacob ", p. 60. (٢)

آل هذا السيف في النهاية للمسيو همصى وتجد رسمه في كتابه في صحيفة ٦٩

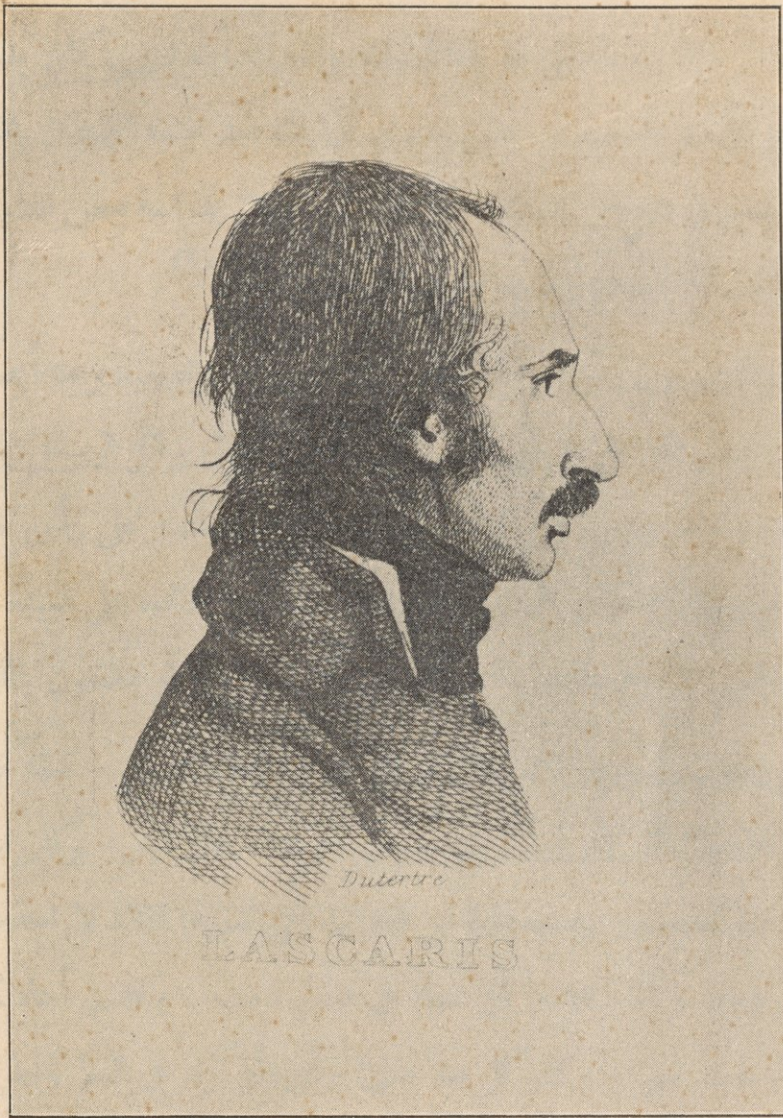
(٣) لما قتل ديسيه فيما بعد في واقعة مارنجو وبلغت الأنباء مصر حزن يعقوب حزناً شديداً
وكتب للجنرال مينو يبلغه استعداداه لدفع ثلث نفقة الأثر الذي أزمعت إقامته لتخليد ذكرى
ديسيه . Homsy, p, 115.

4. Belliard : " Mémoires," t. III. p. 213. (٤)



1

Handwritten text in Arabic script, likely a library stamp or a note. The text is arranged in several lines and is written in a cursive style. The ink is dark and the handwriting is somewhat stylized. The text is located in the lower half of the page, below the watermark.



الفارس لاسكاريس

نقلا عن مجموعة الرسوم التي عملها الرسام Dutertre للكثير من رجال الحملة الفرنسية وتوجد نسخة من هذه المجموعة في كتب الأمير ابراهيم حلمي بمكتبة الجامعة المصرية وهناك بحث مفصل في ديتترتر ورسومه في مذكرات E. De Villiers du Terrage طبعة سنة ١٨٩٩ ص ٣٥٥ - ٣٦٠

ولا بد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور وفهم القدر الذي استطاع أن يفهمه
ولا بد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار في نفسه وكشف له عن
عالم من المعاني غير الذي نشأ فيه وعرفه . ويعجز يعقوب عن الافصاح عما يجول
في خاطره ويقض الله له رجلاً من أغرب أهل عصره يتولى عنه التعبير . ذلك
الرجل هو الفارس ثيودور لاسكاريس دي فنتميل .



الفارس
لاسكاريس

رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات . وأذاع أمره لامارتين في قصة
« فتح الله الصغير بين بدو الصحراء » (١) . واقترن اسمه أثناء إقامته ببلبان باسم
سيدة انجليزية نبيلة لا تقل عنه غرابة أطوار وهي ليدى هستر ستانهوب حفيدة
الوزير الكبير شاتهام وربة بيت خالها ولیم بت مدة وزارته . تركت إنجلترا
وقضت باقى أيامها فى لبنان . ولا يعرف التاريخ لم كان ذلك . أكانت هجرة
نفس أبنية إلى حيث الحرية التامة ؟ أم كان ذلك لمس ظهر فيها شذوذاً وتجلي في
جدها وخالها عظمة وزعامة ؟ ومهما يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن
لأهل القصص (٢) .

وكاد يترك لاسكاريس أيضاً لمصير نفسه . وقد تمنى بارس لو تولى بيير بنوا
كتابة سيرته كما يكتب بنوا السير (٣) . ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو المسيو
أوريان فكاتب فصلاً ممتعاً تتبع فيه هذه الحياة الضالة فى البر والبحر ، فى الغرب
والشرق (٤) . وليس هذا بالأمر اليسير .

ثيودور لاسكاريس من بيت إيطالى نبيل يتصل قديماً بقياصرة بيزنطة .
دخل هو وأخوه فى سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى

1. "Récit du Séjour de Fathalla Sayeghir chez les Arabes Errants (١)
du Grand Désert."
2. Paule Henry—Bordeaux: "La Circé du Désert", (٢) مثال ذلك
"La Sorcière de Djoun."
Pierre Benoit: "La Chatelaine du Liban."
3. Maurice Barrès: "Une Enquête aux Pays du Levant," t. II pp. (٣)
205 — 206.
4. Auriant: "Mercure de France," 15 juin 1924. (٤)

أن انتزعها بونابرت منهم في طريقه إلى مصر في ١٧٩٨ . درس في صباه الموسيقى وفنون العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات خيالاً قوياً . وكان ذا نفس أبية توافقه للعلا يريد أن يخلد اسماً خليقاً بسليل القياصرة . ولكن حظه كان الحمول والفقر والتنقل من مكان لآخر . وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسيه لاسماعيل ابن محمد على فاتح السودان ثم الموت في القاهرة في سنة ١٨١٧ في ظروف مريبة^(١) . وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه . « صاحب مشروعات » .

تحقق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدي أفراد وحكومات . ولكنها في أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها . وكان شذوذ لاسكاريس في أطواره - شذوذ ظهر في أخيه جنوناً - وتعدد المشروعات وتنوعها مما لا يبعث على الثقة فيه . ومما يعزينا أنه وجد بعض السلوى أو السعادة في الخلو إلى نفسه وإلى مشروعاته . وقد جاء في كلام له : « كل إنسان في هذا العالم يسلك الطريق الذي هياه له القدر . واحد من الناس يفتح الممالك ويدوخ البلدان ، وآخر يصنع النعال . وبعض الناس ينشئون الدول ويشرعون لها الشرائع ، والبعض منتهى جهدهم أن يكونوا أباء أطفال . . أما أنا فأحسن صنع المشروعات . أخرج نفسي من عالم الحس وأعمل في مشروعاتي وأترك لخيالي التغلب على ما يعترضها من العقبات . ما أجمل الخيال ! أجد فيه ما أظنه السعادة »^(٢) .

1. Roussel (Consul de France en Egypte) au Duc de Richelieu, (١) 23 avril 1817,

Driault: "La Formation de l'Empire de Mohammed Ali, p. 53.

قيل أن لاسكاريس كره منه تدخله في المسائل السياسية وأنه سقى سما وأن لبوغوص يوسف أحد رجال محمد على نصيباً في هذه النهاية . راجع في هذا أيضاً :

Forbin: "Voyage au Levant," p. 98.

Roussel au Duc de Richelieu. 22 juillet 1817,

Driault: Op. cit. pp. 65—67.

ومهما يكن من الأمر فلا بد من أن نذكر أن الناس في تلك الأيام كانوا سريعين الى تصديق دعوى التسميم عن كل من مات موتاً فجائياً . وسندكر في كلامنا عن موت يعقوب ما أشيع من أن القبطان باشا قد سقاه سما قبل ارتحاله عن مصر (ص ٣٤)

2. Rousseau: "Kléber et Menou," p. 333 note 1. (٢)

رجل هذا حاله تضيق به مالطة ويضيق ذرعاً بالفرسان . تركها وتبع بونا برت إلى مصر . حيث تقلد بعض المناصب الإدارية . تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان في هذا الوادى التاريخى الرحيب . وفى مصر فكر وكتب فى طرق حكمها . ودرس فكرة إقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل فى رأس الدلتا . وعندها يقيم عاصمة البلاد تحت اسم مينو پوليس اجلالاً للجنرال مينو ، يحميها الماء من جوانب ثلاثة وتجذب إليها خيرات الوادى من منابع النيل^(١) . هذا الاجتذاب والتقدم نحو منابع النيل من مشروعات لاسكاريس العزيزة . ألا يمكن أن نجد مغزى خاصاً فى أن اسمعيل فاتح السودان كان تلميذاً للاسكاريس قبيل الفتح ؟ وقد ثبت أن المعلم صرف فى بث هذه الأفكار وما يماثلها فى تلميذه أكثر مما صرف فى تعليمه تصريف الأفعال .

ورأى لاسكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليفة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها . ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد . وأشار أيضاً بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا للجلاء ذخيرة حربية وقوة فرنسية يظهرون أنها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش ويدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم^(٢) .

وقد اجتذب لاسكاريس الى مشروعه هذا فرنسيين آخرين سجل التاريخ من أسماؤهم ما رسل المستشرق والضابط ديبا حاكم القلعة . واتصل بالمصرى يعقوب وجعل فرقته القبطية قاعدة الاستقلال^(٣) . وحاول أن يقنع مينو بكل هذا ولكنه

1. Reynier : "Mémoires", t. II, p. 400. (١)

Auriant : "Mercure de France", 15 juin 1924, pp. 582—583.

2. Auriant : Op. cit., pp. 585—586. (٢)

3. Auriant : Op. cit., p. 581 note 2. (٣)

لم يقتنع . اذ حالت دون اقتناعه قلة ثقته بالفارس و بالأقباط عامة و يعقوب خاصة و سمح لنفسه في أكثر من مرة بمداعبة لاسكاريس و السخر منه .

كتب له : « هل تذكر أيها المواطن قصة ابن كريبيون ؟ أراد الابن أن ينشئ ديناً جديداً . فرفع الأب صليباً وقال انظر يا بني ماذا فعلوا به ^(١) »

ولكن مينو مضى في الاستفادة من لاسكاريس و يعقوب : الأول لاتصاله بالمصريين و الثاني لمهارته المالية و جنده القبطي ^(٢) .



وجاء وقت الجلاء و سلمت الحامية الفرنسية المرابطة في القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للانجليز و العثمانيين . وكان من شروط التسليم أن يكون لأى مصرى أراد حق الخروج مع الجيش الفرنسى دون أن يتعرض أحد ممن تركهم من أهله لأذى في النفس أو المال و ألا يؤذى أحد ممن خدم السلطات الفرنسية و آثر أن يبقى في مصر بعد زوال أمرها ^(٣) .

(و أرسل ابراهيم بك أماناً للأقباط الذين ينطبق عليهم هذا الشرط الثاني فخرجوا اليه و سلموا و عادوا الى دورهم ^(٤) . أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين و الظاهر أنه حاول أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته) فقد جاء في الجبرتي في وقائع صفر ١٢١٦ : « أما يعقوب فإنه خرج بمتاعه و عازقه (كذا) و عدى الى الروضة و كذلك جمع اليه عسكر القبط و هرب الكثير منهم و اختفى و اجتمعت نساؤهم و أهلهم و ذهبوا الى قائمقام (أى بليار) و بكوا و وولولوا و راجعوه في ابقائهم عند عيالهم و أولادهم فأنهم فقراء و أصحاب مصانع ما بين نجار

1. Menou à Lascaris 21 messidor an VIII (10 juillet 1800). (١)
Rousseau : "Kléber et Menou," p. 333.

2. Auriat : Op. cit. p. 589. (٢)
Homsy : Op. cit. p. 121.

(٣) تجد هذين الشرطين كما أعلننا لأهل القاهرة في الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٢

(٤) الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٦

وبناء وصائع وغير ذلك فوعدهم بأنه يرسل الى يعقوب أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه^(١) . ولم يخرج معه إلا أهله ، زوجته مريم نعمة الله وبنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس^(٢) . وكان في الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض مسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله . وخرج أيضاً كثير من نصارى الشوام والأروام مثل بنى وبرطامى (فرط الرمان) وغيرها^(٣) .

لم يبق يعقوب بمصر يعمل فى تقرير مصيرها كما حسب . وليس أمامنا إلا أن نعلل ذلك بأسباب لا بأس بها . أولها مارآه من تشتت الجند القبطى وعزم بنائهم ونجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم . ثانياً ان القيادة الفرنسية لم تعد شيئاً ما لمستقبل الفرقة القبطية ، ولا لمستقبل النفوذ الفرنسى فى مصر . بل كان كل ههما الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب . وربما كان سبب هذا الاهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسى الى قسمين . قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الاسكندرية تحت القائد العام مينو . ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعباً . وسلم بليار القاهرة فى اتفاق عقده مع الأعداء . وأعقبه تسليم مينو^(٤) . أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير : السعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر . ولا أظن أن خروج يعقوب كان للخلاص بنفسه فمثله ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين . وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء فى مصر ووعدته ومناه^(٥) ولكنه رفض وأثر الرحيل للعمل فى ميدان جديد .



- (١) الجبرقى جزء ثالث ص ١٩٦
(٢) 2. Homsy : Opt. cit. p. 133.
(٣) الجبرقى جزء ثالث ص ١٩٧
(٤) عن خروج الفرنسيين من مصر انظر
(٥) 5. Homsy : Op. cit. p. 131.

مشروع
استقلال مصر

ركب يعقوب السفينة الحربية الانجليزية پلاس ور بانها آدموندس . وكان على ظهرها أيضاً الفارس لاسكاريس . وقد عرف آدموندس قدر يعقوب وأنه زعيم في عشيرته وأن الفرنسيين لقبوه « جنرالاً » حرصاً على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه في شئون مصر وقال له أنه يعتقد أن حكومة العثمانيين في مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسي إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى وأنه صدق ما أدعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأوروبية ولم يكن يدرك إذ ذاك مدى القوة البحرية الانجليزية . ثم قال أنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأروبا قد تنفع في هذا السبيل ، على أنه يعلم أن إدراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الانجليزية^(١) . هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين الرجلين أن يعقوب على رأس وفد مصرى اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات في أمر الاستقلال .

بعد هذا الحديث اشتد المرض على يعقوب وتوفي في السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١ والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية وقد راعى آدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته في البحر بل وضعها في دن من « الروم » حفظها حتى مرسيليا حيث دفنت . وفي إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب في قبر معروف^(٢) .

ولم يكن موته نهاية الأمر . فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكرة مفصلة بالموضوعات التي تحدث فيها يعقوب مع آدموندس وسلمها في

(١) راجع الملحق الأول لهذه الرسالة

(٢) عن موت يعقوب وتحقيق موضع قبره راجع Homsy: Op. cit. pp. 134—145.

روى الضابط الفرنسي Vigo Rousillon في مذكراته :

Revue des Deux Mondes, 15 août 1890.

أنه حضر الحديث بين القبطان باشا ويعقوب وأن يعقوب شرب قهوة قدمها له خادم الباشا وأنه في اليوم التالي شعر بألم معوي شديد وتوفي بعد ساعتين والسفينة التي كان عليها على مقربة من رشيد . ولا صحة لهذه الرواية بالمرّة

مرسيليا لذلك الانجليزى لتبليغها لحكومته . فتعهد آدموندس بذلك و بالمحافظة على سر هذه الأحاديث عن نفسه وعن حكومته .

ما رأى آدموندس فى كل هذا ؟ قال أولاً أنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذى تكلم عنه لاسكاريس وثانياً أنه لا يدرى ان كان عضواً فى الوفد أو سكرتيراً مترجماً له . وأنه على كل حال لم يستطع أن يصفه إلا بأنه رجل « خيالى » .

قام آدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التى أعدها لاسكاريس (١) .

بدأ الكاتب باهداء التحية للورد الأول للبحرية الانجليزية (الموجه اليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد انجليزى أن يسعى له . ثم أطبب فى وصف عظم هذا المشروع - تحقيق استقلال مصر . وأن هذا الاستقلال يتدد سحب الجهل التى تكاثفت على هذا الوادى الذائع الصيت حيث مهد الحضارة ، فيه تعلم الأغريق وعن الأغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستنارة أهلها . ألا يثير ذلك فى نفوس الغربيين شيئاً من عرفان الجليل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها ؟ ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحداً . وأن استقلالها وقد أصبحت موضع أطماع الدول خير حل للمسألة المصرية . تلك المسألة التى أثارها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها . وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله « أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها » .

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الانجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للأمة الانجليزية بعد أن عرفوا جنودها وبعد أن خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لا بد وأن تسيطر بنفوذها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى .

(١) راجع الملحق الثالث لهذه الرسالة .

ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين . وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما في مذكرته : الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة ، الثاني ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها . أما عن نوع الحكومة فاكتمى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الأمة وطاعتها وحبها كما أحب أهل الصعيد في الماضي القريب حكم العربي همام وكان عادلاً حازماً^(١) أما عن وسائل الدفاع فنجدده يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صد إعتداء أروبي إلا بعد مضي زمن طويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطني تشد أزره قوة حرية أروبية و بئذ المال لرجال الباب العالي .

وتؤكد المذكرة في النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار في مصر وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حذر الموت ، ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين إذا ما رفضت الدول إنشاء دولة مصرية مستقلة .

أما عن خطة « الوفد المصري » في القريب فانها ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لا قناعتها بقبول قاعدة الاستقلال في مفاوضاتها مع الحكومة الانجليزية على مصر . ويرجو لاسكاريس أن لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسي مما يحمل الحكومة الانجليزية على رفضه حذر دسياسة سياسية فرنسية . ويطلب في النهاية أن تكون مخابرات إنجلترا مع الوفد شفرية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم في تريستا^(٢) .

(١) كسر شوكة همام على بك الكبير . وتوفي همام في سنة ١١٨٣ هـ . وترجمته في الجزء الأول من الجبرتي ص ٣٤٥ — ٣٤٧

2. Il Signor Conte Anton Cassis.

(٢) تحت هذا الاسم ولقب النبيل الغربيين يستتر مصري قبطي اسمه أنطون قسيس . عمل في ادارة الجمارك في الاسكندرية أيام المماليك . ولما أرادت حكومة الأبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها اجتذبت لتحقيق ذلك أنطون قسيس هذا فمنحته حمايتها وأنعم عليه الأبراطور يوسف الثاني بلقبى بارون وكونت في الأبراطورية . ولما فشل هذا المشروع النمساوي وعلا نفوذ أعدائه غادر الكونت كاسيس مصر واتخذ تريستا موطناً له وكان هذا في ١٧٨٤ راجع عن هذا :

F. Charles — Roux : " Autour d'une Route ", pp. 156—159.

Hoskins : " British Routes to India " pp. 23, 26—27.

ونجد لاسكاريس فعلاً يقدم للقنصل الأول بونابرت مذكرة موقعاً عليها من «نيرافندي» بالنيابة عن الوفد المصري وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسي ومن تفضيل المصريين للانجليز ذلك التفضيل الوارد في المذكرة لانجلترا على أنها تتفق معها في الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والانسانية ولجد بونابرت^(١).

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا — تاليران — يقرر فيها الغرض الأسمى ويعتذر عن الاجمال تاركاً التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير في باريس إذ العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة. وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقي إذ أن المسلمين منهم يعز عليهم إبدال غيره به ، فضلاً عن أن هذا الزى يثير في نفس بونابرت ذكرى فتوحه ويعرف من لم ير مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله^(٢).



لا اللورد الأول للبحرية الانجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية
أهتم بما في هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة

وفي «مقدمات الصلح» بين فرنسا وانجلترا اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية. وأدمج هذا الاتفاق في معاهدة الصلح النهائية: معاهدة أميان. وفي سياسة الحكومتين قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالماليك. وحتى في هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها في تسهيل — أو منع — وقوع مصر في حكم انجلترا أو في حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها في رفاهية أو سعادة الشعب المصري^(٣).

لم يكن إذن لهذه المذكرات أي أثر واقعي. ولا نجد في الأوراق ما يدل على

(١) أنظر الملحق الثالث لهذه الرسالة (٢) أنظر الملحق الرابع لهذه الرسالة

(٣) عن معاهدات الصلح أنظر

3. Ghorbal. "The Beginnings of the Egyptian Question" ch. IX.

وجود تفويض لوفد مصرى . وعلى فرض وجوده فمن الثابت أنه لم يشترك في منحه أى شيخ من العلماء والا لوجدنا في الجبرتي ما يدل عليه . وليس هناك أيضاً ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من عطاء الأقباط فقط . إذ أن سيرتهم لا تحملنا على الاعتقاد بأن الفكرة الاستقلالية جالت في أذهانهم . وإنما التفويض الوحيد الثابت حصول يعقوب عليه كان لمطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه هو وجرجس جوهرى وآخرون للجنرال مينو^(١) .

يحق لنا بعد هذا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من أفكار لاسكاريس . وأن يعقوب لم يقرر إلا الفكرة الاستقلالية .

رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه في أيام أقرب إلينا من سنة ١٨٠١ : في اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال وفي توطيده بالاعتراف الدولى ، وفي تبرير طلب الاستقلال بالتنويه بمجد مصر ، وبأن عظمة الماضى تبعث على الأمل فى عظمة المستقبل ، وبأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة ، وأخيراً بأن موقعها الجغرافى يجعلها موضع التنافس وأن الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الأخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها .

✱

✱ ✱

كان نصيب مشروع ١٨٠١ الأهمال . وكذلك كان حظ أصحابه . وقد عرفنا ما ليعقوب ، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل . وظل

خاتمة المهاجرين
المصريين

(١) اشترك فى هذا القرض يعقوب وجرجس جوهرى وأنطون أبوطاقيّة وفلتاؤس وملطى (Homsy : op. cit. 119) وقبيل رحيل يعقوب خوله شركاؤه مفاوضة الحكومة الفرنسية فى فرنسا فى رد ما لهم . (Homsy : op. cit. 130) وحال موت يعقوب دون ذلك . ثم قام حفيد لأنطون أبى طاقيّة بالمطالبة وذهب بنفسه الى باريس وكان ذلك أيام نابليون الثالث . ورفضت حكومة الامبراطورية أن تعترف بصحة الدين وسوت المسألة بأن صرفت لحفيد أبى طاقيّة ما تكلفه من نفقة فى المطالبة (٤٥٠٠ ليرة فرنسية) ومنحته التبعية الفرنسية (رمزى تادرس : الأقباط فى القرن العشرين جزء رابع صفحة ٩٦)

منهم في آروبا آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ووقع أكثرهم في الفقر والفاقة فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشاً مدة طويلة وانتهى أمرهم بالاندماج في الفرنسيين . ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسي العربى (١) .

(١) تجد عريضة استجداء من المهاجرين المصريين في أوراق وزارة الخارجية الفرنسية في السجل الخاص بالدولة العثمانية تحت هذا الرقم 203, "Supplements", Turquie. تجد مثلاً من تقاضيه في النزاع بين أرملة يعقوب وأخيه حنين على تركة الجنرال في Homsy, op. cit. p. 70. وصل خبر هذا النزاع الى مصر . الجبرتي جزء ثالث ص ٢٨١ في حوادث رجب سنة ١٢١٨ أما عن المعاش الذى أجرته الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين فالظاهر أنه استمر يجرى على ورثتهم . من ذلك نجد جبريل ابراهيم وهو حفيد أخت يعقوب يتمتع بمعاشه حتى موته في ١٨٧٨. (Homsy, op. cit. p. 67)

ومما يضح ذكره أيضاً عن المهاجرين المصريين أن الرحالة الهندي المسلم الفارسى الثقافة ميرزا أبا طالب خان أثناء سفره من باريس الى مرسيليا في عودته من إنجلترا الى وطنه من طريق القسطنطينية والعراق التقى في عربة السفر بحسناء مصرية مسيحية ذاهبة الى مرسيليا وأعجب بشجاعتها فانه لما حاول بعض المسافرين مداعبتها رغمًا عنها أوسعتهم سباً بالعربية . وحال أبو طالب بينهم وبينها ولما قابلته في مرسيليا سهلت عليه صعاب سفره وكان هذا في ١٨٠٢ (أنظر

Mirza Abu Talib Khan: Voyage en Europe etc. Traduction française, Paris 1831. t II. 69—70.

أما عن اليوس بقطر فكان سنه وقت نزول الفرنسيين نحو الخامسة عشرة . والظاهر أنه ابتداء دراسة الفرنسية إذ ذاك وعمل في الترجمة أثناء الاحتلال الفرنسى . ثم هاجر من مصر عند نهاية الاحتلال الفرنسى وليس هناك ما يثبت أنه ابن أخت يعقوب . وأقام بقطر في مرسيليا حتى سنة ١٨١٢ مشغلاً بدراسة الفرنسية وفي تلك السنة استقدمه وزير الحرية لباريس واشتغل أول الأمر بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة الى اللغة الفرنسية وعاون في تحقيق الأسماء العربية اللازمة للخرط الجغرافية المنشورة في كتاب وصف مصر . وكان أثناء ذلك يعد قاموسه الفرنسى العربى . وفي سنة ١٨٢١ عين لتدريس العربية العامة في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومات في نفس السنة وهو في السابعة والثلاثين وقد تمكن من تجهيز القاموس . ووقف على طبعه خلفه في تدريس العربية المستشرق Caussin de Perceval وقدم له بترجمة لبقطر منها استخلصنا الحقائق السابقة .

وقد طبع هذا القاموس أيضاً في القاهرة في مجلدين في سنة ١٨٧١ وقام على طبعه عبيد غلاب خريج مدرسة الألسن . وفي كتب الأمير ابراهيم حمى بمكتبة الجامعة المصرية توجد هذه الطبعة من القاموس كما توجد أيضاً طبعة بباريس الرابعة في مجلد واحد وتاريخها ١٨٦٩ وقد وقف على هذه الطبعة الرابعة Armand Pierre Caussin de Perceval ابن المستشرق السابق الذكر .

وظل لاسكاريس يضرب في بلاد الشرق سنين . يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع أحياناً لأصلاح الزراعة في بلاد القوقاز ولبنان وأحياناً لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهاية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتباب من جانب الرجال الرسميين وحظه الحزن والفاقة . إلى أن هبط مصر يرتزق من تعليم الفرنسية لاسماعيل بن محمد على وبقى كذلك إلى أن مات في ١٨١٧ . وانتهى كما بدأ « صاحب مشروعات » . إلا أنه على الرغم من ذلك يحق علينا أن نحى ذكرى من عرف كيف يجيد الكلام في استقلال مصر وكيف يبينه على مبرر الاستقلال الحقيقى : الكرامة الانسانية . فكان بذلك معبراً بلغة العصر الحاضر عما جاش في نفس المصرى يعقوب

كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية ، أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد على حتى اليوم .

الملحق الأول^(١)

من القبطان جوزيف آدموندس ربان السفينة الحربية بالاس
للأرل أوف سانت فنسنت اللورد الأول للبحرية الانجليزية

على ظهر السفينة بالاس

جزيرة منورقة في ٤ أكتوبر ١٨٠١

سيدى

استبحت لنفسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا إعتقاداً منى بأنه قد
يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصاً يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى
باريس فى الوقت الحاضر .

كان ممن ركب فى مصر السفينة بالاس تحت أمرتى رجل قبلى ذو سمعة حسنة
جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير . وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال
لينالوا تأييده .

عُنت بعض العناية بهذا المنفى السيئ الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون بلاده .
وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها وأنه
انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عله يخفف عن مواطنيه ما قاسوه وان الفرنسيين
خدعهم وان المصريين فى الوقت الحاضر يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وأنه
لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده وان ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا . وقال أيضاً
أن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف إلا
قليلاً عن قوة انجلترا البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة انجلترا فان
رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر لن تتحقق . وأضاف صديقه لاسكاريس

1. Captain Joseph Edmonds of His Majesty's Ship Pallas to the Earl of Saint-Vincent first Lord of the Admiralty. Minorca 4th. October 1801.

Foreign Office Records, 78. Turkey, vol 33.

Traduction française, Douin, "L'Egypte Indépendante" pp. 1—3.

(وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفداً
فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية في أمر استقلالها . وأثناء سفرنا
مات الجنرال وقام المترجمان (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتايب
هذا . وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته في أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث
لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته . وقد قرر لى
المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقياً وان المفوضين الآخرين على ظهر السفينة
بالاس لا يزالون أعضاء فيه . هذا وانى لم أتمكن من أن أتبين هل هو واحد من
هؤلاء المفوضين أو أنه ليس إلا سكرتيراً مترجماً له . وأعتقد من كلامه أنه رجل
خيالى^(١) . وأظنه يدمونتى الأصل وسمعت أنه من أولئك الفرسان الذين تركوا
جزيرة مالطة وتبعوا جيش بونابرت . وقد أعطيت ميثاقى للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا
والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالاً يؤذيهم . هذا ولما كان من
المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذى لا يمكننى تقدير مدى ما بيده من تفويض للاقامة
فى باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة . إذ قد
يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لا بلاغها أولاً لرئيسى اللورد كيث . وأرجو
أن تتزلوا فتقروا مسلكى هذا .
ولى الشرف . . . الخ

الملحق الثانى^(٢)

مذكرات مرفوعة للقبطان آدموندس لتذكركه فى الوقت المناسب له برؤوس
أهم الموضوعات التى تبادلناها فى أحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

1. From his conversation I believe him to be of a speculating mind."

(٢) المذكرات التى تكون هذا الملحق مرفقة بالكتاب السابق وهى فى نفس السجل الذى

بيناه عن الملحق الأول .

Texte français. Douin, op. cit. pp. 5-12.

بهذه المذكرات « يياض » فى عدة مواضع وبها أيضاً جمل تحتها خط وهذه المواضع مبينة هنا
كما فى الأصل .

(١)

الخطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النيل^(١) . وقد يظهر لأول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطاً عادياً في الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء . ولكنه يجب أن يعتبره في الحقيقة ملخص الأحاديث السياسية التي دارت بيننا على ظهر السفينة هذا ولما كان الاسهاب في شرح خطتنا في الوقت الحاضر أمر أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفي على الأقل لتذكيرك بأهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن إبلاغك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النيل فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم . حتى يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لانبجاسته مسند نستند إليه لدى حكومته . وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها منافع لأمته . وأى قضية أليق بسعى لورد النيل مثله !

(٢)

وإذا سلمنا بأن ما سيعرضه الوفد المصري لدى الحكومات الأوروبية على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الأهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الأقل — أيها القبطان — أن الدول لن تعمل أبداً عملاً أمجد وأنبل من أن تبدد بقرار سياسي واحد ظلمات الجهل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التي كانت مهد استنارتنا وعلومنا وفنوننا . تلك البلاد التي يمكن القول عنها إجمالاً أنها كانت موضع قيام الحضارة التي نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا . وإذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الأوروبية عليها حتى إذا ما كان ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التي تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها في مصالحها .

(١) الظاهر أن لاسكاريس ظن أن آدموندس قد يكتب أولاً لرئيسه المباشر اللورد كيث لا مباشرة الى اللورد الأول للبحرية كما فعل

(٣)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية) . . . وفي هذه الأثناء قد تقترحه عليها الحكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحكومة الانجليزية أن تعلم أن الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعليها إذن أن لا يريها أمره . . . فان المصريين^(١) . . . ولا نظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسى إلا على سبيل المجازاة والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح انجلترا . ومما لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة فى تملك مصر .

(٤)

تدعى الامبراطورية العثمانية فى جميع أجزائها للانحلال . ويهم الانجليز إذن قبل حدوث هذا أن يدبروا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هذا الحادث المهم عند وقوعه . وإذا تبين لهم استحالة استعمارهم مصر — كما استحال هذا على فرنسا — (فلهم عوضاً عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلترا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . وليس من شك فى أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التى تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقية الوسطى . ولا بد من أن انجلترا بحكم مركزها فى الهند تهتم جداً بالتجارة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا .

(٥)

وكان مراد بك يقول - وربما كان على حق فى قوله - أن كفار الغرب (كذلك سعى الأمم الأوربية) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وان الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون دائماً مثار اختلافهم . قد يقال أن انجلترا لا حاجة بها إلى

(١) جملة غير تامة فى الأصل

ذلك الامتلاك إذ أن سيادتها البحرية تحتم أن تكون كل تجارة مصر في يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ في مصر . ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالي الطبيعية وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة ارضائها أكثر من ارضاء انجلترا ؟ ألا تذهب الدولة في هذه الخطة فتغلق أبواب مراقبتها في وجه الانجليز ؟ أليس من الممكن أن يضغط الفرنسيون على الترك براً فيحملوهم على الامعان في عدائهم للانجليز وتحطيم تجارتهم في أراضى الشرق الأدنى وفي البحر الأحمر ؟

(٦)

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق في حكمهم أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بي للكلام في هذا لأنى أعتقد أنك تتذكر بسهولة ما دار بيننا من حديث فيه . كل شيء إذن يبرهن - الأسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو الانجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقاً - أن مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية لانجلترا . فعلى هذه اذن أن تسمح سياسياً على الأقل باستقلالها هذا اذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه . يملئ هذه الخطة ما نتوقعه من حوادث في المستقبل

(٧)

فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا في تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التى يفكر فيها الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استنارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شيء من هذا . بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع

له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون إلا عاطفتين
خلقيتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالأمر
العسير) أن ترفه من عيش الناس بعض الشيء وأن تزيد كسبهم قليلاً فمن المحقق
أنها تجد منهم نصراء متحمسين . أو ليس أى نظام أفضل من الاستبداد التركى ؟
لتكن إذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام العربى
فى الصعيد (وقد حدثك عن تاريخه) ولتثق عند ذلك بأنها ستُحترم وتُطاع وتحب .
(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه
دولة أوربية ؟ لا تتوقع حدوث شئ من هذا إلا بعد زمن طويل وعند ذلك
يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء . أما ان كان
الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فاننا نعتقد أن الدول الأوربية تحظر عليهم
مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم أن
يستخدموا جيشاً أجنبياً من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه . ويكفى
هذا الجيش لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها ويكون
هذا الجيش الأجنبى أيضاً نواة الجيش الوطنى . هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب فى
العثمانيين وأنهم يعملون أى عمل للحصول عليه فاننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله
لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية
وتنذرهم بشر مستطير .

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف وأن هذا
الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتتكافأ بذلك قواها .
وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون
الأخرى . وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحكومة التركية فى مصر
ولا بد من هذه الحيلة أراء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك
حقيقة الأمر لما ترددوا فى الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا

مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الأخوان قد تحدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن اخواننا فى مصر حالهم غير هذه . هم تحت السيف والعصا . فليس أمامهم إلا المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

(٨)

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الأوروبية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذى يثقل حمله على بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضماناً يقيهم على الأقل ، إذا عادوا لوطنهم ، شر انتقام الترك منهم .

(٩)

هذا ولو أن الوفد المصرى لدى الحكومات لن يعمل إلا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس تضميننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سر المفاوضات . لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل فى مراسلاتنا عند الحاجة اليه .

(١٠)

ويرى الوفد المصرى حرصاً على تحقيق ما يصبو له من إبلاغ المفاوضات غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مميزات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرىء فى مقدوره عرقلتها . وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أوروبا كي تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات الأولى (الخاصة بالاستقلال) على انجلترا . وتكون انجلترا عندئذ قد اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما فى الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد

المصرى لأن يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الأمتين
إحداها من الأخرى أو حذر دسياسة من دسائس الجمهورية (الفرنسية)

(١١)

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن في فرنسا أو في غيرها من البلاد يمكنك أيها
القبطان أن ترسل ما تريد للسنينور الكونت أنطون كاسيس^(١) المقيم في تريستا وهو
يتولى إرسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على أن يوضع تحت عنوانه عنواني . أما ما
قد يرسل لي (من غيركم) من المجلته فان وصولنا الى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب
معرفة أين أقيم . وبهذا يسهل تسامى ما قد تكتبه لي الحكومة (الانجليزية) .
ولكن تلزم الحيلة التامة في هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرّة .
على ظهر السفينة پلاس في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١ .

الملحق الثالث^(٢)

من نمر افندى بالنيابة عن الوفد المصرى للقنصل الأول بونابرت^(٣)
إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الكثير الحب له .
محجر مارسيليا في أول فندميير من السنة العاشرة (٢٣ سبتمبر ١٨٠١)
١٨ صفر سنة ١٢١٦^(٤)

في أيام العالم الأولى ، في تلك العصور البعيدة المجهولة ، عند ما كانت فرنسا

(١) عن كاسيس هذا أنظر هامش ص ٣٦ من هذه الرسالة .

2. Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Turquie. "Correspondance", vol. 203. Auriant "Mercure de France", 15 Juin 1924, pp. 593—594.

بهذه الوثيقة أيضاً يياض في مدة مواضع بينها هنا كما في الأصل

3. Nemir Effendi (pas Hemir, comme l'a transcrit M. Auriant) au Premier Consul. Il y a un Lofti (sic. Lotfi) Nemir parmi les émigrés Egyptiens à Marseilles, voir Homsy, op. cit. p. 141.

حرف المسيو أوريان في نقله هذه الوثيقة اسم الموقع عليها الى « همير افندى » . وقد قرأتها
نمير افندى ووجدت في أسماء المهاجرين المصريين في مارسيليا اسم لطفى (أى لطفى) نمر وصناعته
مترجم لغات شرقية (راجع كتاب همصى ص ١٤١) . واذا تذكرنا أن النون والميم في النمر
ينطق بها في بعض اللهجات متحركة بالكسرة سهل علينا فهم كتابة هذا الاسم بالحروف الفرنسية
هكذا Nemir

(٤) كذا في الأصل . ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١ توافق ١٥ جمادى الأولى

لا تختلف كثيراً عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الاغريق . ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالأمس إلى فرنسا وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويتعرفوا ما اهتدت إليه من وسائل لا عهد لغيرها من الأمم بها ، تلك الوسائل التى مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته فى ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة وكما أن سولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للاغريق ، كذلك الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هذا أيها القنصل الأول إذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد وأحسنست استقبال وكلائهم فى باريس . وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفاً شريعاً يحدد ذكرى فتح عظيم نلتته ثم فقدته . ولا بد أنك تحس إحساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر فى معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقاً به .

عن الوفد المصرى

وكيله

نمر افندى

(حاشية^(١)) أغا الانكشارية^(٢) وعضو الوفد ، الذى عرفته أيام أن كنت فى القاهرة يرجونى أن أعيد لك ذكره ما شرفته به من عطفك عليه . ن . أ

1. Ce post-scriptum a été omis par M. Auriant dans sa transcription du document. Il se trouve dans le texte original comme suit: —

“L'aga des janissaires et membre de la legation, connu de vous au Kaire, m'ordonne de le rappeler au souvenir des bontés dont il a été honorées par vous”. N.E.

(٢) المقصود من هذا عبد العال أغا الذى ذكرنا خبر وكيفية ارتحاله مع الجيش الفرنسى

فى سنة ١٨٠١ — ص ٣٣

الملحق الرابع^(١)

من نمر افندى لوزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل في مرافئ الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذي تم جلاؤه عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه أن يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين في كنفك وتقول له كما يقول بدوى الصحراء لضيفه « كن في أرضك »^(٢) .

كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى في الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم أفريقية الوسطى الجذابة الخفية فبذل جهوداً عديدة غير مثمرة ليعلم في فرنسا شيئاً من المصريين وعلى الأخص من القبط فان بطريك هؤلاء هو في الواقع بابا الأحباش . لم ينجح الملك في سعيه هذا . واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه — اللهم إلا الجزء الضئيل منه — الملكية الفرنسية المطلقة وقد بلغت منتهى القوة الاستبدادية . هذا والوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يجول في نفوس مفوضيه العديدين من شعور بصلاح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى وما يملكون من اصالة تدبير ونفوذ

1. Nemir Effendi au Ministre des Relations Extérieures, 1 Vend. (١) an X Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Turquie. Correspondance vol. 203.

Auriant: op. cit. pp. 594—595.

(٢) في الأصل ما يأتى : —

2. “ et lui accorder, comme disent les Arabes du désert, votre fiardac d'hospitalité ”.

وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الأولى ، سحق القوة الغشوم التي تستبد بهم من جديد ، الثانية ، وضع أملهم في فرنسا ، اعتقاداً منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملهم . نتقدم اليك اذن أيها الوزير برأى : تكبدت فرنسا في الشرق خسارة عظيمة ، لم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض ما فقدته ؟ أنك ان تفضلت فدعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع انجلترا فأننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى في الشرق وتدرأ عنه ما قد يفقدها إياه زمناً طويلاً من أثر الجلاء عن مصر وما آل اليه أمرها الآن وسعى الدول التي تخشى بحق علو كلمة فرنسا . بل نستطيع أن نؤكد أكثر من ذلك . نستطيع أن نؤكد أن فرنسا اذا أرادت يمكنها بواسطة أمة لن تكون الا موالية لها مد نفوذها نحو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول تركم مصر للانجليز من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية .

ولا يرى الوفد المصرى في الوقت الحاضر فائدة في الاسهاب . فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس أن يبين عن مقاصده ما لا يستطيع في عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر في الكلام على ما نشاء وان كنا في الكتابة لا نبليج الا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجهه علينا كثرة شواغلك السياسية من الاجمال في الرسائل . ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وان تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا في باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى . فالمسامون منا يشق عليهم خلع زيهم . وفضلاً عن هذا فهذه الأزياء الشرقية قد تذكر القنصل الأول بفتوحه وراء البحار وترضى المستظلمين ممن لم يتبعوه للشرق .

والوفد المصرى يعلم أن وقت القنصل الأول الذى تصدر عن ارادته أمور الحكم حتى في جزئياتها وتستظل الدولة في ظله الظليل أثمن من أن يصرفه في التفكه بقراءة ما يرد اليه من الرسائل الخاصة ولكننا نرجو أن يقدر أن وفدنا جديد في بابه وأنه يصل الى فرنسا في ظروف خاصة وان كتابنا له ^(١) المرفق بهذا له ماله من أهمية فيتنزل لتسلمه منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور .

(١) المقصود من هذا الكتاب المنشور في الملحق الثالث .

Date Due

مكتبة

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية

School of Oriental Studies
of
The American University at Cairo

رقم	رقم	العنوان	ملاحظات
٨٦	٢	كتاب	كتاب
٢٢	١١	كتاب	كتاب
٢٠١	١٧	كتاب	كتاب
٢١	٥	كتاب	كتاب
٢١	٢٢	كتاب	كتاب
٢٣١	٨١	كتاب	كتاب

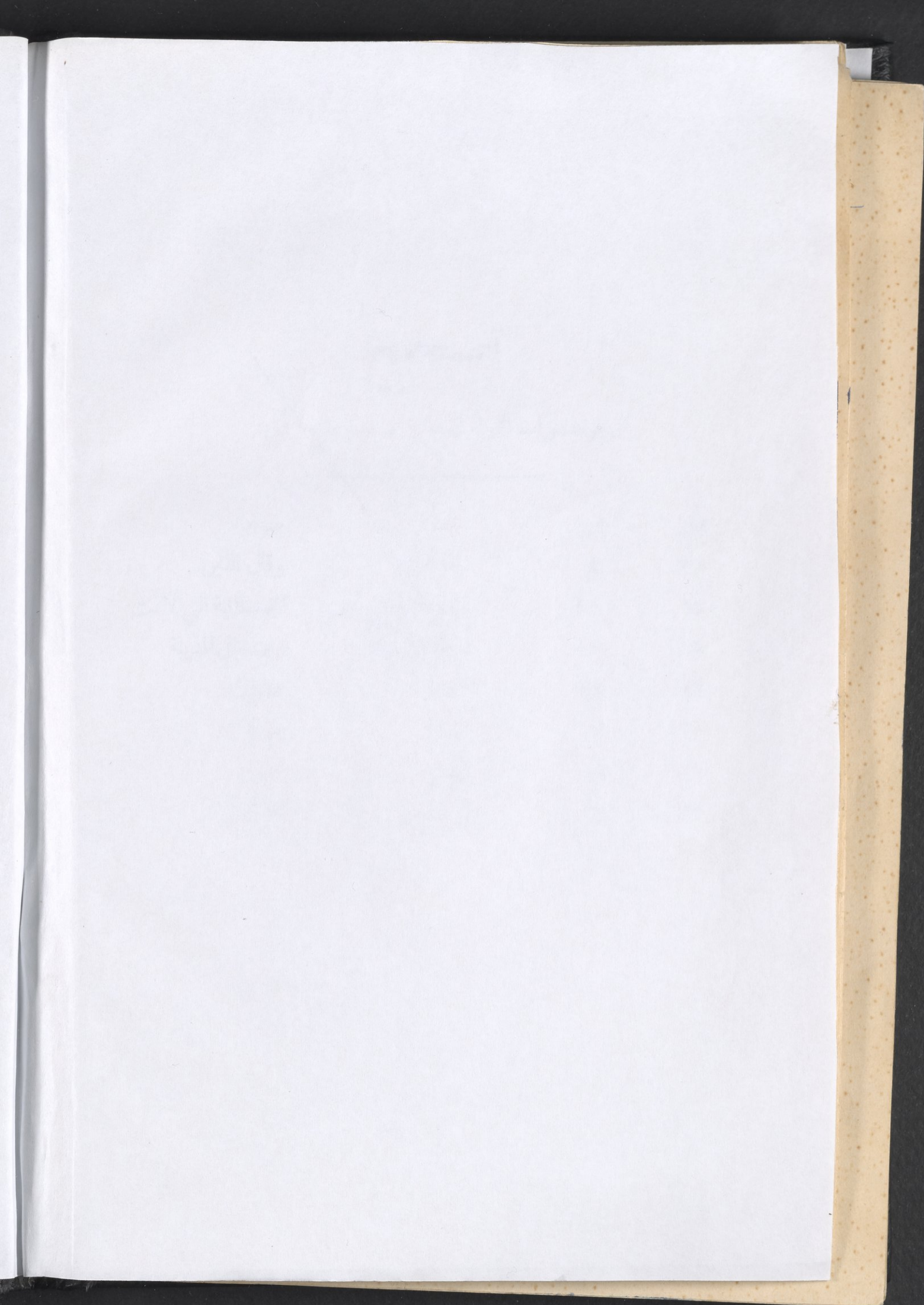


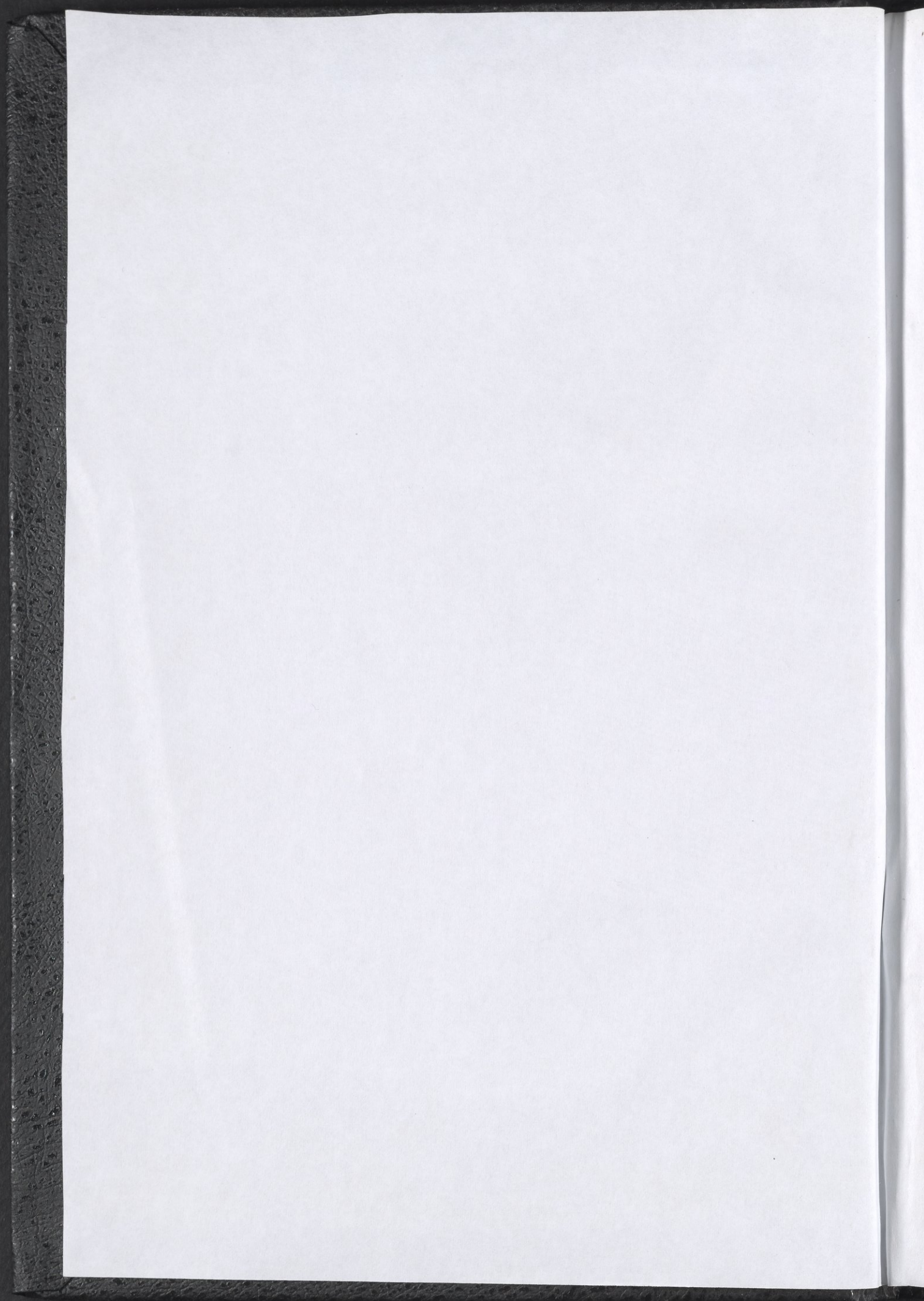
تصحیح

زجو حضرات القراء تصحیح نسخهم علی ما یأی:

ص	س	خطأ	صواب
۳۸	۴	وقا الذین	وقال الذین
۶۲	۱۲	القحطانیة التي تمت	القحطانیة التي لانت
۹۴	۱۱	وبعده الى مكة	وبعده الى المدينة
۱۰۲	۲۱	عصبة	عصبية
۱۲۰	۵	لتعارفوا	لتعارفوا
۱۲۰	۲۴	بفضل	بفضل
۱۴۴	۱۹	قدر سوخ	قدر سوخ







DT
103
.G47
1932